

الكتاب المسطور يقود إلى فقه الكون المنظور



﴿ثُمَّةِ آيَاتٍ قَرآنِيَّةً كَثِيرَةً تَتَمَلَّ بِالْكَوْنِ، وَتَتَحَدَّثُ عَنْ عَوَالِمٍ مُّخْتَلِفَةٍ، الْمُشَاهَدُ وَغَيْرُ الْمُشَاهَدُ، وَالْمَعْلُومُ وَغَيْرُ الْمَعْلُومِ﴾: (فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ) (الحاقة/ 38-39). (فَلَا أُقْسِمُ بِمَا وَاقَعَ إِذْ جُوْمَ * وَإِذْ هُمْ لَقَسَمُ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمُ) (الواقعة/ 75-76). وكثير من الآيات تتكلم عن صور من الإبداع الإلهي في عالم النبات، وعالم الحيوان، وعالم الطبيعة والإنسان (سَدْرٌ يَهْمَ آيَاتِنَّا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَزْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَزْهَمْ الْحَقُّ...) (فصلت/ 53)، وكثير من الآيات تتحدث عن مفردات دقيقة في عوامل الكون، وهذا بصفة إجمالية نجد القرآن الكريم حافلاً بالآيات العظيمة التي تشتد انتباها وتلفت نظرنا إلى ذلك الكون البديع الذي نعيش فيه؛ لنرى كيف يسير بدقة وعظمة تنبئان عن أنّ لهذا الكون خالقاً، خلق وقدر ودبر، ومن هذه الآيات الآية التي تقول: (تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبَدُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ...) (الإسراء/ 44)، !! والسماء هي أسطع لوحة تدل على وجوب وجود الخالق وعظمته سبحانه بما تملئ به من الأجرام السماوية الضخمة التي يبلغ حجم بعضها أكبر من أرضنا ألف مرة.. والتي يسير بعضها بسرعة أكبر من انطلاق القذيفة.. تسير كلها بلا مزاحمة ولا تصدام.. وتسير بلا ضوضاء ولا أعطال.. تحوي آلافاً من القناديل المضاء التي تساعد الناس في سيرهم.. وهي تضاء بلا زيت ولا كهرباء وتتحمل السماء وتجعلها زينة للناظرين[1]. . وما زالت السماء مع التقدم العلمي

الهايل - وستبقى - مجالاً للبحث والاستكشاف؛ حيث يمكن القول إنّ "ما عُرف عنها لا يساوي إلا نسبة مليونية مما يمكن أن يُعرف.. . ومع ذلك فكثير من تجليات الإبداع واضحة لكل من ينظر بعقل وبصيرة معاً إلى السماء وما فيها. فإن من ينظر في السماء يلمح بجلاء - لو أعمل عقله وخلصت نيته - أنّ السماء وما فيها مسخر ومدبر وموظف، فمن يأ ترى فعل ذلك بهذه القدرة الفائقة المعجزة..؟ إنه ۚ الذي لا إله إلا هو... إنها تمضي منذ خلقت وفق نا موس لا يختل قط...!!.

وعندما ننظر في الفضاء ونجده معرضاً للعجائب والخوارق كذلك، ففيه السحاب المعلق بين السماء والأرض، يسقي ساكينها بالماء، الذي هو أساس الحياة عليها، ويلطف من حرارتها. . .

فمن الذي سخره وجمعه وأمره أن يُنزل الماء؟! إنه ۚ سبحانه وتعالى. . .

ثم هذا هو الهواء الذي يملأ الفضاء.. فكل ذرة من ذرات ذلك الهواء الجامد الذي لا يملك شعوراً، تسمع وتعي ما يلقى إليها من الأوامر الإلهية.. فيستنشقها جميع الأحياء.. وتنقل الأصوات وتنقل الحرارة والضوء والكهرباء.. وتصير وسطاً صالحًا لتلقيح النباتات.. وغير ذلك من الوظائف، فكيف انتظمت وأدت ذرات الهواء دورها على هذا النحو؟!!.

ثم للننظر إلى المطر الذي يغدقه ۚ تعالى علينا من خزائن رحمته على صورة تلك قطرات المتهاطلة، ولذلك أطلق على المطر اسم الغيث والرحمة[3].. كيف استقام أمر المطر على هذا النحو؟ وكيف أنّ "أمماً تعيش على المطر في زراعاتها وحيواناتها؟..

فهل كان ذلك كله احتمالاً أو مصادفة؟ وكيف بقيت هذه المصادفة ثابتة آلاف السنين؟!..

قدرة ۚ القوي اللطيف الكريم المحيط بكل شيء علماً، والذي عنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو، وينزل الغيث، وينشر رحمته، ويمسك السموات والأرض أن تزولا.. وصدق ۚ العظيم القائل في كتابه المبين: (أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ إِذْ تَسْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَرْزَلَتُمُوهُ مِنَ الْمُزَنِ أَمْ زَحْنُ الْمُذَرِّلُونَ * لَوْ زَسَاءُ جَعَلْتُمَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَسْكُرُونَ) (الواقعة/ 70-68).

وعندما ننظر أيضاً فوق الأرض، فنبصر عالم الحيوانات، وفوق الأرض وبين السماء والأرض فنبصر أسراب الطيور التي لا يمسكهن إلا ۚ وحده، والتي تمضي عابرة للمحيطات بذاكرة كمبيوترية لا تخطئ طرقها ولا مساكنها.. عندما يتعمق تفكير الإنسان، بعقله الوعي - في عالم الطيور والحيوانات على هذا النحو - يجد تلك الحيوانات والطيور تتكلم بمئات الآلاف من الأصوات المتباينة،

والألسنة المختلفة، وسوف يجد ذلك الإنسان ثلاث حقائق عظيمة محيطة تشهد على وحدانية ۚ جل جلاله وهي: حقيقة الإيجاد والصنع والإبداع (أي حقيقة الإحياء ومنح الروح)، وحقيقة التميز مع الجمال، التي تتضح من خلال تلك المخلوقات غير المحدودة، والتي يختلف بعضها عن بعض بعلامات فارقة وبأشكال مزينة وبمقادير موزونة وبصور منسقة، ثم حقيقة خروج كل هذه الأنواع

غير المحدودة من بيوض وبويضات متماثلة معدودة ومن قطرات بسيطة متباينة أو مختلفة بفارق طفيف[4].

فهل تم كل ذلك بالصادفة أو الاحتمال؟ وأي صادفة أو احتمال يصل إلى هذه العبرية العجيبة: عبرية عجيبة في الإيجاد.

ووبرية في حفظ التمييز الدقيق بين الأنواع حتى في الصنف الواحد. إخراج كل هذا الإعجاز من بذور ضعيفة، وبويضات ضئيلة.. ومع ذلك فمع ضعفها وضآلتها - تحمل فهرستا كاماً بخصائص النوع ووظائفه لا تحيد عنه!!.

وإذا تركنا السماء والفضاء والماء والهواء والمطر.. ثم أدركنا النظر إلى الركن الأسفل الذي نبصره، أي إلى الأرض التي نسير فوقها بأقدامنا وننام بأجسادنا، ويحيل إلينا أنها منبسطة ساكنة خامدة جامدة، بينما هي تمر من السحاب وتدور عدة دورات كما تدو عقارب الساعات.

ومع ذلك نجد فوقها جبالاً كالأوتاد.. هائلة ضخمة رهيبة.. والعجيب أننا عندما نتأمل بفكرنا وعقلنا في عالم الجبال والصحارى، نجد أنّ وظائف الجبال الكلية وفوائدها العامة من العظمة والحكمة بما يحير العقول؛ فمثلاً نجد بروز الجبال واندفاعها من باطن الأرض بأمر رباني يهدى من هيجان الأرض، ويخفف من حدتها الناجمة عن تقلباتها الباطنية، فتختلس بذلك من الزلزال المهلكة والتندعات المدمرة، فالجبال أوتاد للأرض تحفظ توارنها.. قال تعالى: (وَالْجِبَالُ أَوْ تَادٌ) (النبا / 7). وقال: (.. وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ...) (الحجر / 19)، يضاف إلى ما في حوف هذه الجبال من أنواع إلينا بيع والمياه والمعادن والمواد والأدوية التي ادخلت بحكمة وكرم وتدبير[5]. ومع كل ذلك، فهذه الكائنات.. تتكامل في أداء أدوارها، وتمضي لوظائفها بحب وشوق ووفاق القانون الجاذبية بين السالب والموجب، والذكورة والأنوثة في كل شيء، وحتى علاقة الإنسان نفسه بالكون، مع أنها علاقة تسخير بين (فاعل) هو الإنسان و(موضوع) هو الكون، إلا أنّ التسخير هنا - في الرؤية الإسلامية - ليس تسخير إذلال وصواع، بل هو تسخير ودود كريم استثنائي، فالرسول يحي جبل أحد، كما أنّ جذع الشجرة كان يحن لرسول الله عليه السلام...!. وهنا نؤكد ونذكر ما يؤكد لنا المفكر الإسلامي والمصلح الكبير بديع الزمان سعيد النورسي التركي (ت1960م) من أنّ للجمادات حسا وعاطفة، مثلها مثل الحيوانات والطيور غير العاقلة.. ولها كلها جمادات أو حيوانات- أشواق ولذائذ، وهو يؤيد مقولته بأنّ من يبصر بعض الجمادات يجد لها تطلب شرفاً ومقاماً وكاماً وجمالاً وانتظاماً، بل هي تبحث عن كل ذلك، وتفتش عنه لأجل إظهار الأسماء الإلهية المتجلية فيها، لا لذاتها، فهي تتنور وتترقى وتعلو أثناء امثالها تلك الوظيفة. لنتذكر أيضاً عالم الحيوانات والطيور غير العاقلة - هنا - أنّ الديك مثلاً - مع أنه غير عاقل يؤثر الدجاجات على نفسه، فيترك ما يلتقطه من حبوب رزقه الهين، دون أن يأكل منها. ويشاهد أنه يقوم بهذه المهمة، وهو في غاية الشوق، وذروة اللذة، فهناك إذن

لذة في تلك الخدمة أعظم من لذة الأكل نفسه.. وكذا الحال مع الدجاجة - الراعية لأفراخها - فهي تؤثرها على نفسها، إذ تدع نفسها جائعة في سبيل إشباع الصغار، بل تضحي بنفسها في سبيل الأفراح، فتهام الكلب المغير عليها لأجل الحفاظ على الصغار[6]. وعلى هذا يقاس جميع ما في الكون من سعي وحركة، ابتداء من دوران الشموس في أفلاتها، وانتهاء بدوران الذرات في دائرة جاذبيتها، حتى إن^٦ كل ذرة، وكل ذي حياة تبدو كالجندي في الجيش له علاقات ينجدب إليها، وله وظائف وارتباطات مع كل دائرة من الدوائر في جيش الحياة كله!! وأياً كان الأمر فإن مفردات الكون، أو ما نسميه عالم الأشياء ينقسم إلى ثلاثة أقسام[7]. قسم منها: كالماء يُرى ويُحس، ولكن لا يمسك بالأصافع.. وفي هذا القسم المادي ينبغي التجرد عن الخيالات والانغماس فيه بكليلتك.. بالطرق العلمية البحثة.. وسوف تكتشف أسراراً عجيبة في الماء وأشباهه تؤكد لك وجود الخالق العظيم. والقسم الثاني: كالهواء، يُحس ولكن لا يُرى، ولا يُتخد ولا يُمسك.. فهو نصف مادي ونصف معنوي، وهو بحاجة إلى العلم وال بصيرة. وبهما تدرك عظمة اللطيف الرحيم الذي يقيم حياة الناس والكون على كائن لطيف على هذا النحو. والقسم الثالث: كالنور، يُرى ولكن لا يُحس، ولا يؤخذ ولا يستمسك، فيحتاج لعمل الكيان الإنساني كله.. من بصيرة القلب إلى الروح.. لأن^٧ النور لا يؤخذ باليد، ولا يُصاد بالأصافع، وهو يعالج بالفكر وال بصيرة[8].. وبالتفكير (الموضوع النقى) وال بصيرة (النقية القوية) نستطيع أن ندرك بعض آفاق عظمة الله في الكون، ولكننا سندرك أول ما ندرك أن^٨ هذا الكون لا يقوم بغير خالقة الحكيم المدبر الخبير المهيمن الرحيم. وسوف يدلنا كل شيء في الوجود على وجوب وجود الله القدير، وعلى عظمته المطلقة من جهتين: الجهة الأولى: قيام كل كائن من الذرات حتى المجرات ومن النملة حتى الفيل بوظائف تفوق طاقته المحدودة بآلاف المرات، مع أنه عاجز عن ذلك، فيشهد كل كائن بلسان عجزه على وجود الله القدير المطلق. الجهة الثانية: توافق حركة كل كائن مع الدساتير التي تكوّن نظام العالم، وانسجام عمله مع القوانين التي تديم توازن الموجودات، فيشهد - بهذا الانسجام والتواافق - على وجود الله العليم القدير. (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصْفُونَ) (الأنبياء / 22). ولو كان فيهما آلله إلا الله لفسدتا.. فسبحان الله رب العرش عما يصفون!!.. الها ماش:

- [1]- النورس الآية الكبرى ص42-30. [2]- المرجع السابق ص34. [3]- المرجع السابق ص36-35.
 [4]- النورسي: الآية الكبرى ص55-52. [5]- النورسي: الآية الكبرى نشر سوزلر القاهرة. [6]-
 النورسي: حقائق الإيمان 122-121. [7]- النورسي: الآية الكبرى.

المصدر: كتاب إنسانيات الإسلام (مبادئ شرعية .. وتجارب واقعية)